صوم رمضـــان
بين العـــلم والأدب

للاستاذ ضياء الدخيلي

— ٤ —

وإذا طوينا النواحي العلمية لصوم رمضان وأقبلنا نتحسس صداه في الشعر ونتلمس أثره في الأدب العربي وجدنا رمضان عبئاً ثقيلا على الشعراء المتحللين من قيود الإسلام الأدبية وإن كانوا اسماً في ربقة المسلمين ، أقصد أولئك الشعراء الهائمين في وديان الغرام وراء الجواري والغلمان المترددين بكثرة على حانات الخمور ومواخير الفجور ، قال أبو نواس يهجو رمضان ويتبرم من ظله الثقيل على أهوائه :

إلا يا شهر كم تبقى مرضنا ومللنـا كا
إذا ما ذكر الحمـ لشوال ذممنـا كا
فياليتك قـد بنت وما نطمع في ذا كا

لقد كان رمضان كابوساً على الشعراء السادرين في بيداء الضلالة الهائمين وراء اللذات في كل واد ، ساحقين في سبيل متعتهم كل القيود الأدبية . ولم يقتصر عليهم ثقل الصوم فهناك نفوس لا تتحمل الجوع ولا ترضخ لهذه الرياضة النفسية والجسمية فتثور في وجه التقاليد وتعلن تمردها على أحكام الصوم ومن ذلك ما قاله أعرابي ألزم بالصوم في مدينة جاء يزور أقاربه فيها فلم يطق الصوم وارتحل وهو يقول :

يقول بنو عمي وقد ذرت مصرعي تهيأ أبا عمـــرو لشهر صيام
فقلت لهم هاتوا جرابي ومزودي سلام عليكم فاذهبوا بسلام
فبادرت أرضاً ليس فيها مسيطر على ولا مناع أكل طعام

وقال اعرابي آخر حضته امرأته على الصوم فأباه :

أتأمرني بالصوم لا در درها وفي القبر صوم يا أميم طويل

روى ذلك ابن قتيبة الدينوري في عيون الأخبار . ولكن

« لافوازييه » الذي طلب مهلة حتى يتم إحدى تجاربه العلمية فاجابه القاضي (ليست الجمهورية بحاجة إلى كيمائيين)

واقتيد المتهمون من غير تحقيق أو تثبت من شخصياتهم حتى لقد كان الفتى يشنق باسم الكهل . وكانت الرءوس تتساقط كالحجارة كما يقول (فوكيه تانفيل) وبانتصار فرنسا على بلجيكا أعلن زوال الخطر الخارجي مما زاد في كراهيـــة الشعب للارهاب ، خصوصاً منذ نودي على روبسبير في ساحة المحكمة « فليسقط الطاغية » الذي لم يستطع حيلة في الدفاع عن نفسه بعد أن قيل له في وجهه « إنك كرمويل الجديد » وعبثاً حاول أن يبرر أعماله ويضفي على نفسه لقب « عبد الحرية » و « الضحية الحية للجمهورية »

واستمر الارهاب عشرة أشهر إنتهى بعدها يوم أطاحت المقصلة برأس روبسبير الذي أجج النيران الحامية وكانما كان صوت الشعب ينادي : « يامضرمي النار أصبحتم لها حطباً »

ومن ثم بطل قانون المشبوهين وقانون التسعير الجبري وغيرهما من القوانين ، وقام الحزب الملكي الجديد ، واخـــذ الإرهاب لو جدنا يداً إذ حل الارهاب الأبيض محل الارهاب الأحمر الذي ذهب بالدم القاني وامتزج بماء الأنهار والبحيرات

وكان هذا اللون الإرهابي الجديد كرد فعل طبيعي للوحشية السابقة . فاقلق ذلك لجنة الانقاذ العام . وأتاح لها فرصة إتخاذ سياسة المقاومة في سبيل الجمهورية . فوقفت « ضد ستورد السنة الثالثة » الذي قصد به بطلان دستور سنة ١٧٩٣ ذلك الدستور الذي وضعته للجمهورية لجنة الأمن العام ؛ ولكنهم لم يعملوا به بل أوقفوه وقتاً ناما واكتفوا بنظام الارهاب وما تبعه من قوانين

ومع ذلك انهارت آمال الملكيين الذين توسلوا إلى إسترجاعها بالعنف ، وبالاعلانات ينشرونها في الشوارع : أيها الشعب الفرنسي استرجع دينك ومليكك تظفر بالسلام والخبز

وفي ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٥ تحرك الجيش وقوامه عشرون ألفاً وفي الفد كان نابليون بونابرت — ذلك القائد الذي لم يتجاوز السادسة والعشرين — قد استدعي ليكون حاكم باريس ، فعاد الأمن إلى نصابه . ولم تغرب شمس يوم ٢٦ أكتوبر حتى أعلنت لجنة الأمن العام إنتهاء أعمالها ، بينما كان الهتاف يشق عنان السماء « لتحي الجمهورية »

محمد محمود زيتون

الشعراء الذين قيدتهم التربية الإسلامية وزجرتهم عن مهاوى اللهو والباطل والمغريات بالفساد كانوا يرحبون بهذا الشهر الذى فيه تدريب النفس وضبطها وكبح جماحها فى غالية المواعظ لنعمان الألوسى قال شاعر يرحب برمضان :

قد جاء شهر الصوم فيه الأمان والعتق والفوز يسكنى الجنان
شهر شريف فيه نيل المنى وهو طراز فوق كم الزمان
طوبى لمن قد صامه واتقى مولاه فى الفعل ونطق اللسان

ولكن هذه الأبيات أشبه بكلام الفقهاء منها بشعر الشعراء .

وشاء أبو نواس أن يشارك أهل الزهد فى هداهم كما تبرز فى ميدان الفسوق وفاق الخلعاء فى غوايتهم وتهتكهم ، ورغب تلميذ ولية بن الحباب أن لا تخلو من سابقه حلبة شعرية فترك فى التقوى والورع أبياتاً سيـــارة تنافى ما اشتهر عنه من فساد الطريقة ، فمن ذلك ما رواه أبو هفان من أن العتابى لما نفسك نهى أن ينشد شعر أبى نواس فأظله شهر رمضان فدخل إليه رجل معه رقعة فيها

شهر الصيام غدا مواجهنا فليهجن رعيـة النسك
أيامه كونى سنين ولا تفنى فلست بسائم منك

فكتب العتابى البيتين وقال وددت أنهما لى بجميع ما قلته من طارق وتليدى ، فقال الرجل أنهما لأبى نواس فزق الرقعة ورمى بها . وكأن أبا نؤاس بعد أن اغترف من معين اللذات بكلتا يديه مالها وزهد فيها زهد الملل والسأم لا زهد الورع والعفة قال عن الدنيا وهو يردد بيتيه السائرين :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم وأسمت مرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصـارة كل ذاك أثام

وفى ديوان أبى نواس باب واسع للزهد بحثت فيه عن هذين البيتين الذين أعجب بهما العتابى فلم أجدهما ، وليس هما بالجودة التى تسبغها عليها القصة فلعلهما من وضع القصاصين قاصدين الغرابة والطرافة . ولقد صادف عنف أحكام المجتمع الإسلامى فى رمضان على الشعراء المتمردين على الآداب العامة — رد فعل قوى فيهم فنتج أدب ثائر صاخب على هذا الكابوس الذى حال بينهم وبين ما يشتهون ومنعهم من الاندفاع فى تيارات لهوهم ومعاقرتهم اللذات ، ففى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية يصرخ أبو نواس فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ويصخب صائحاً ممزقاً ثوب رياءه الشفاف :

منع الصوم العقارا وزوى اللهو فنارا
وبقينا فى سجون الصوم للـــهم أســارى
غير أنا ســنذارى فيه من ليس يدارى
نشرب الليـــل إلى الصبح صغاراً وكباراً
وإذا غاب فـــتى منا شربنا (اليادكارا)
تتفنى ما اشـــتهينا ه من الشـعر جهارا
أسقنى حتى ترانى أحـب الديك حمارا

وقوله شربنا (اليادكارا) هذه الكلمة فارسية ومعناها الذكرى أى شربنا نخب الذكرى للغائب .. لكن ابن المعتز يتراجع عن الحان ويرد السقاة على أعقابهم احتراماً لقدسية رمضان ويقول :

ونهانى الصيام عن سفه الكأ س فردت على السقاة المداما

فإذا تولى شهر حرمان النفس من شهواتها يهب ابن المعتز مصفقاً طرباً بحبيبته الخمر ويقول مبتهجا :

أهلا بفطر قـد أنار هلاله الآن فاغد على المدام وبكر
وانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

ويشاركه القاضى الفاضل فى فرحته بالعيد فيقول :

قضى نحبه الصوم بعد المطال وأطلق من قيد فتر الهلال
فدع ضيقة مثل شد الأسار إلى فرجة مثل حـل العقال
وقم هاتها مثل ذوب النضار وموج البحار وطعم الزلال

ويتبعهما بعد أجيال وقرون شوقى شاعر مصر بالأمس فيتغنى فرحاً بتخلصه من غل رمضان :

رمضان ولى هاتها ياساق مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثره على ألافها وأقله فى طاعة الخـــلاق
بالأمس قد كنا سجينى طاعة واليوم من العيد بالاطلاق
ضحكت إلىّ من السرور ولم تزل بنت الكروم كريمة الأعراق

ويذكرنى حنين الشعراء إلى الخمر فى هـذا الشهر المبارك الذى تحارب فيه الموبقات ووسائل الفساد بما نقله محمود شكرى الألوسى فى (بلوغ الأدب فى معرفة أحوال العرب) من أن العرب فى جاهليتهم كانوا يكثرون فى شهر رمضان من شرب الخمر لأن الذى يتلوه هو شهور الحج التى يمتنعون فيها من السكر

وكانوا يعتبرون رمضان أول شهور السنة وبه يبدؤنها ويسمونه (ذبر) ولم يعدم المجتمع الإسلامي من الفرقاء من يتاجن متحدياً أحكام رمضان الصارمة فقد قال بعض الأدباء مستفتيا الفقهاء مازحاً هازلا وعلى سبيل الدعابة :

هذا رمضان كلنا نخشاه ... من أجل الصيام
ما قولك يا فقيه فى فتواه ؟ ... عجل بكلام
من بات معانقاً لمن يهواه ... فى جنح ظلام
هل يفطر عند ما يقبل فاه ... أم صام عام ؟

فأجابه ظريف آخر لابساً طيلسان الفقهاء :

يامن سأل الفقيه فى فتواه ... الشرع فسيح
إسمع لكلامنا وخذ معناه ... إن كنت فصيح
من بات معانقاً لمن يهواه ... إن كان مليح
لا يفطر عند ما يقبل فاه ... بل صام صحيح

قال أبو هلال العسكرى فى (ديوان المعانى) كتب الحسين بن وهب إلى الحسن بن رجاء يوم شك وقد أفطر الواثق :

هززنك للصبوح وقد تهانا ... أمير المؤمنين عن الصيام
وعندى من قنا فى الخمر عشر ... تطيب بهن دائرة المدام
فكن أنت الجواب فليس شىء ... أحب إلى من حذف الكلام

وقال آخر :

أقول لصاحبي وقد بدا لى ... هلال الفطر من تحت الغمام
سنسكر سكرة شنعاء جهراً ... وننصر فى قفا شهر الصيام

وقال محمد الجعفرى :

هل لك فى سهباء مشمولة ... ليست من الدبس الذى ينبذ ؟
فان شيطان على طيبه ... درب إذا فكرت لا ينفذ

وقال أحمد بن يزيد :

إلا فاسقياني من معتقة الخمر ... فلا عنرلى فى الصبر أكثر من شهر
وإن كنتما لم تعلما فتعلما ... بأن زمان الصوم ليس من العمر

وحدث الصولى قال كتب على بن جبلة إلى أبى دلف يستسقيه نبيذاً فى يوم عيد الفطر فوجه إليه بما كفاه وبمائتى دينار فقال على بن جبلة :

وابيض عجل رأيت غمامة ... وأسيافه تقضى على الحدثان
مددت إليه ذمتى فأجارها ... وأغنى يدى عن غيره ولسانى
شربت ورويت النديم عياله ... وأدركت ثأر الراح من رمضان
وكان لشوال على ضيافة ... فكانت عطايا جوده بضمان

وقال اعرابى :

وجدنا دينكم سهلا علينا ... شرائعه سوى شهر الصيام

ويحدثنا الفرزدق الشاعر أن التعرم برمضان كان حتى فى العصر الأموى على قرب عهدهم بصاحب الرسالة ، وطبعاً أن ذلك الضجر كان من فساق المسلمين لا من أولئك الذين كانوا يتفانون فى حب الجهاد حتى فتحوا شرق الأرض وغربها وأذلوا أقوى الأمم شوكة وأمنع الناس بلاداً وأكثرهم حصونا

قال الفرزدق :

إذا مامضى عشرون يوماً تحركت ... أراجيف بالشهر الذى أنا صائمه
وطارت وقاع بالمواعيد بيننا ... لكى يلتقى مظلوم قوم وظالمه
فان شال شوال نشل فى أكفنا ... كؤوس تعادى العقل حين تسالمه

أشال الشىء رفعه وحمله قال أبو هلال العسكرى فى كتابه (ديوان المعانى) الذى فرغ من تأليفه سنة ٣٩٥ هـ — ومعانى هذه الأبيات كلها مبتكرة لم يسبق إليها الفرزدق . قال وأنشدنا أبو أحمد عن الصولى عن الرياشى عن أبيه :

وقفنا فقلت أنفا راشدنا الهوى ... لهتكنا عند الرقيب نحيب
ومن دون ما نلقاه من لوعة الهوى ... تشق جيوب بل تشق قلوب
على أن شوالا أشال بوصلنا ... ومرتمه للعاشقين خصيب

وأنشد ابن بسام قوله يشكر رمضان إذ ساعده انشغال الناس فيه بالعبادات ففاز بأوطاره واختلس من يهواه :

سقيا لشهر الصوم من شهر ... عندى له ما شاء من شكر
كم من عزيز فيه فزنا به ... أنهضه الليل من الوكر
ومن إمام كان لى وصله ... إلى كحيل العين بالسحر
لو كان يدرى بالذى خلفه ... أعجله ذاك عن الوتر
وخلة زارتك مشتاقة ... فى ليلة القدر على قدر
فانصرف الناس بما أملوا ... وبؤت بالآثام والوزر

وأنشد المبرد للحارثى :

شهر الصيام وإن عظمت حرمته ... شهر طويل بطىء السير والحركة